الجغرافيا السياسية لكوكب مختلّ

صدمة الأنثروبوسين

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات"، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى "سلسلة ترجمان" بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس "سلسلة ترجمان" وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات" الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة

الجغرافيا السياسية لكوكب مختلّ

صدمة الأنثروبوسين

جان ميشيل فالانتان

ترجمة

جان جبور

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر – إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
فالانتان، جان ميشيل
الجغرافيا السياسية لكوكب مختلّ: صدمة الأنثروبوسين/ جان ميشيل فالانتان؛ ترجمة جان جبور.
280 صفحة؛ 22 سم. – (سلسلة ترجمان)
يشتمل على ببليوغرافية (صفحات 249–261) وفهرس عام.
ISBN 978-614-445-715-3
1. تلوث البيئة – الجوانب السياسية. 2. حماية البيئة – الجوانب السياسية. 3. التغيرات المناخية – الجوانب السياسية. 4. البيئة والإنسان. 5. المناخ، تغير – الجوانب السياسية. 6. السياسات البيئية. 7. الجغرافيا السياسية. 8. الطبيعة – تأثير البشر على – الجوانب السياسية. 9. العلاقات الدولية – الجوانب البيئية. أ. جبور، جان (مترجم). ب. العنوان. ج. السلسلة.
304.28

هذه ترجمة مأذون بها حصريًا من الناشر لكتاب

Géopolitique d'une planète dérèglée
Le choc de l'Anthropocène
par Jean-Michel Valantin
Copyright © Éditions du Seuil, 2017, et avril 2022 pour la postface inédite

عن دار النشر
Les Éditions du Seuil.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر
المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة – منطقة 70
وادي البنات – ص. ب: 10277 – الظعاين، قطر
هاتف: 40356888 00974

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى
بيروت، تشرين الثاني/ نوفمبر 2025

المحتويات

مقدمة 11

الفصل الأول: الأزمة الكوكبية أزمةٌ جيوسياسية 15

الثورة الصناعية والحرب والتغيّر على الكوكب 15

التهجين العسكري الكبير 17

الحربُ محرّكُ التحوُّل على الكوكب في القرن العشرين 21

التصعيد إلى الحدود القصوى: العنف الاستراتيجي
والتحوُّل على الكوكب 26

"حرب العالم" والأزمة الكوكبية 27

الردع النووي وتكثيف الأنثروبوسين 33

الحرب والأنثروبوسين 34

الفصل الثاني: جانوس الأميركي 37

النفط هو الحياة 38

الحرب والنفط 41

الحرب من أجل تحفيز "حدود النمو" 43

الفشل الأميركي في الشرق الأوسط 46
سوق النفط بوصفها ساحة معركة 47
العطوبية الأميركية 51
الهجوم المناخي 52
الكارثة المناخية لعام 2016 54
الهجوم البيولوجي 59
الجيش الأميركي يتكيف مع تغيّر المناخ 61
الجيش الأميركي وصدمة كاترينا 63
الإنكار في أميركا وتناقضاته 68

الفصل الثالث: تفكك القطب الشمالي وإحياء القوة الروسية 73
القطب الشمالي أزمة جيوفيزيائية وأزمة جيوسياسية 74
الاستراتيجيا الروسية في القطب الشمالي المضطرب 76
طريق بحري عابر للقارات تابع لروسيا 77
النفط الروسي "الشديد الصعوبة" 79
منصات نفط لعصر الأنثروبوسين 82
مشروع يامال: قوة الجذب الروسية 84
الشراكات الاستراتيجية في القطب الشمالي:
روسيا والصين وآسيا 88
عسكرة القطب الشمالي الروسي 93
جيوفيزياء القطب الشمالي والجغرافيا السياسية الكوكبية 99

الفصل الرابع: موارد للصين: طريق الحرير الجديد 101
إمبراطورية الحاجة 101
ثورة استراتيجية وتاريخية: "طريق الحرير الجديد" 107
الطريق الصيني الأوراسي 111
عسكرة طريق الحرير البحري 113
طريق مزروع بالسلاح للتنمية الصناعية والتجارية 118
الطريق وباكستان 119
الطريق وإيران 121
الإمارات العربية المتحدة وطريق الحرير 123
الطريق وإسرائيل 126
الطريق في أفريقيا 127
التنين القطبي الشمالي 128
الدب والتنين و"الضباب الدخاني السام":
مجموعة جيوسياسية جديدة 133

الفصل الخامس: الحصار المُحكَم: المجتمعات البشرية المحاصَرة 137
كوكب متحوِّل وحصار مُحكَم 138
متلازمة بنغلادش 138
سواحل في خطر 142
الحصار المُحكَم في باكستان: الحرارة والماء 143
العطش والنيران في الهند 147
أزمة الأنهار الجليدية هي أزمة استراتيجية 149

حصار عالمي مُحكَم 151
دبي في مواجهة القارة القطبية الجنوبية وغرينلاند 156

الفصل السادس: دول في أزمة 161
عصر الأنثروبوسين وتقويض الدولة 162
أزمة المناخ وفشل الدولة 163
الصومال: انهيار الدولة والقرصنة والأنثروبوسين 165
القراصنة الصوماليون "محاربون بيئيون"؟ 170
القرصنة، أو البقاء في قيد الحياة من خلال حرب العصابات 171
أزمة المحيط هي أزمة قارية؟ 171
الدول والمهاجرون والأنثروبوسين 174
القوة من خلال التكيّف 177
عطوبية "الشمال"؟ 182

الفصل السابع: حروب الانهيار 185
"الربيع العربي": أزمة سياسية وأزمة جيوفيزيائية 185
الظواهر المناخية المتطرفة والأزمات السياسية 186
المناخ والأزمة الزراعية والحرب الأهلية: نموذج سورية 189
الدولة الإسلامية: حرب الأنثروبوسين 193
العراق: من جحيم الحرب إلى جحيم الأنثروبوسين 195
الشباب والحرب والانهيار 201
الحرب ضد الانهيار: الوضع في مصر 202
مصر وسياسات الأنثروبوسين 204

حرب البنى التحتية المتعلقة بالطاقة 205
"محور للترابط"؟ 208
وظائف العلاقات بين الحرب والانهيار 210

الفصل الثامن: المفترق الكبير؟ 211
في مواجهة التسارع الكوكبي الرهيب 211
الوحش الأوقياني والعقد الاجتماعي 213
تَمثُّل التهديدات الهجينة 217
التخيّلات بوصفها تجارب فكرية استراتيجية 217
في شأن الهندسة الجيولوجية والجغرافيا السياسية 220
السيناريو الأول: عصر الأنثروبوسين وحرب الانهيار العالمية 222
السيناريو الثاني: تحالف استراتيجي عالمي
للتخفيف من آثار عصر الأنثروبوسين 225

خاتمة 231
تذييل 235
ثبت المصطلحات 245
المراجع 249
فهرس عام 263

مقدمة

حمل صيادو سمك صوماليون بائسون السلاح، وكانوا يعيشون تحت وطأة الفقر، والحرب الأهلية، والاستغلال المفرط لمواردهم السمكية من أساطيل الصيد الصناعي، وتَلوّث البيئة البحرية التي تعتمد حياتهم وحياة مجتمعاتهم عليها. لقد تحوَّل هؤلاء إلى مجموعة قراصنة يؤثِّرون في التجارة البحرية على المستوى الدولي، وهم يشنون منذ سنوات هجمات تستهدف السفن في عرض البحر.

أتاح الارتفاع السريع لدرجة حرارة القطب الشمالي للروس في شمال سيبيريا، البدءَ باستثمار احتياطيات برية وبَحريّة ضخمة من النفط والغاز. وفتحوا في إطار الدينامية ذاتها ممرًّا بحريًّا جديدًا، أي طريق الشمال البحري، الذي يُعرف أيضًا بـ "الممر الشمالي الشرقي"، وهو يربط مضيق بيرينغ بالنرويج. استحوذ القطب الشمالي الروسي وعملية تطويره صناعيًّا وتجاريًّا على الاهتمام، حتى إن الحكومات والشركات الصينية والهندية واليابانية والتايلاندية والفيتنامية والسنغافورية ضاعفت حجمَ الاستثمارات وقوافلَ الشحن البحري في هذا المشروع الجديد الرائد، الذي جذب إليه آسيا بأسرها، إضافة إلى شمال أوروبا.

وبينما تجري على قدم وساق منافسة عالمية من أجل الاستحواذ على الموارد الطبيعية المتناقصة، أطلقت الصين مشروعًا عملاقًا يقضي بنشر شبكة من الطرق البرية والبحرية عبر آسيا وأفريقيا وأوروبا والولايات المتحدة. تهدف مبادرة "طريق الحرير الجديد" هذه إلى اجتذاب موارد متنوعة باتجاه "إمبراطورية الوسط" لتلبية احتياجات هذا البلد الضخم في مرحلة التنمية الحالية التي يشهدها.

أقامت الهند حاجزًا ضخمًا من الأسلاك الشائكة، مجهَّزًا بأحدث التقنيات العسكرية، إضافة الى حقول الألغام ومنصّات لإطلاق الرصاص، على طول

4000 كيلومتر من حدودها مع بنغلادش. ويُعَدّ هذا البلد، وهو من أفقر بلدان العالم ويقع بمحاذاة المحيط الهندي، من أكثر المتضرّرين من زيادة منسوب مياه المحيط نتيجة تغيُّر المناخ.

تعبِّر هذه الأمثلة الأربعة، وكل مثل على طريقته، عن كيفية دخول الإنسانية إلى واقع جيوسياسي واستراتيجي جديد، يجد توصيفًا له من خلال أشكال الأزمة الكوكبية المعاصرة المتنوعة. هذه الأشكال مرتبطة بالآثار الجيوسياسية والاستراتيجية لتغيّر المناخ، يضاف إليها التوترات التي تنشأ عن المنافسة الواسعة النطاق على الموارد الطبيعية. يحلّ ذلك في زمن ندرة العديد من الموارد الجيولوجية، والتوترات القائمة في أسواق الطاقة، وأزمة التنوع البيولوجي، وأزمة دورة المياه. كيف يمكن التحدث عن بروز هذا السياق الجيوسياسي والكوكبي من دون الوقوع في فخ التهويل الكوارثي؟ تكمن الإجابة عن هذا السؤال الجوهري في النهج الاستراتيجي الذي يسمح بتحليل كيفية تأثير العلاقات الجيوسياسية والاستراتيجية في سياق التحديات الجديدة.

هذه التوترات المتشابكة بين الجوانب الاستراتيجية والجيوفيزيائية والبيولوجية تحدّد المعايير الجديدة السياسية والكوكبية لعصرنا الجيولوجي الجديد، الذي يتّسم بكون الإنسان أصبح القوة الجيوفيزيائية والبيولوجية الرئيسة على وجه الأرض، وتُطلَق عليه تسمية "عصر تأثير الإنسان" أو "الأنثروبوسين" (Anthropocène). هذا "العصر الجيوفيزيائي للإنسان" هو أيضًا عصر جيوسياسي واستراتيجي، لأنه يُرخي ثقله على الأطر المادية والغذائية والصحية، وكذلك على الأطر السياسية والاستراتيجية للإنسان في عصر العولمة.

تؤدي الأزمة الجيوفيزيائية والبيولوجية الكوكبية المعاصرة بسرعة، وعلى نحو مفاجئ، إلى تحوّل جيوسياسي هائل. ينتشر هذا التحول على نطاق العالم بسرعة غير مسبوقة، ويضع على المحك التوازنات الجيوسياسية وقدرات التكيّف لدى المجتمعات البشرية. إنها مشكلة سياسية واستراتيجية رئيسة، ليس لمستقبلنا فحسب، وإنما لزمننا الحالي، إذ تُحدِث الأزمة الكوكبية تحولات على الروابط الاجتماعية في داخل كل مجتمع، إضافة إلى التحول في ميزان القوى الدولية. وهذا يولِّد طاقة عنفية ربما لا نجد نظيرًا لها في تاريخ الإنسانية من حيث اتساع نطاقها، ما يضع في الميزان حياة الأمم وموتها.

هذا التقاطع بين اشتداد تأثير البشر في نظام الأرض بسبب ظروف الأنثروبوسين المستجدة واحتياجات المجتمعات والدول المختلفة، يُعيد تشكيل نظم جديدة للتوترات والتحديات التي تنشأ على مستوى الكوكب. تكشف هذه التوترات عن الاتجاهات السائدة في الجغرافيا السياسية المعاصرة، التي تتأثر بعمق سواء بحاجات المجتمعات الحديثة، وبالتالي بمتطلبات الصناعة وثقافة الاستهلاك، أو بالآثار العكسية التي تنتج من هذه الممارسات على البيئة الكوكبية. ونتيجة لذلك، ينشأ توزّع دولي جديد للقوة، يكون الرابحون والخاسرون فيه هم أولئك الذين ينجحون في التكيّف مع الأزمة الكوكبية أو لا ينجحون.

إضافة إلى ذلك، ومن أجل فهم مبادئ هذه العلاقة المعقّدة جدًّا بين الأنثروبوسين والجغرافيا السياسية والحرب، سنبدأ بدراسة كيف قامت الثورة الصناعية بتحويل معايير البيئة الكوكبية ومعايير الحرب على حد سواء، وكيف أصبحت الحرب محرّكًا للتنمية الصناعية والأزمة الكوكبية المعاصرة، من القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الثانية.

ثم سنرى كيف أعقبت نهايةَ الحرب الباردة مباشرة حربُ الموارد الأولى التي قادها العراق أيام حُكم صدام حسين، ومن ثم الولايات المتحدة، أي حرب الخليج الأولى وكيف امتدت حتى عام 2010، ما أسهم في تسليط الضوء على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي هي في أصل الاضطرابات الكوكبية وزيادة حدّتها. لقد بيّنت هذه الحرب الطويلة عن اتجاه أعمق من جانب الولايات المتحدة، التي تحاول محاربة "حدود النمو" (limites de la croissance). وبالتالي فإن القوة العسكرية والاقتصادية الأولى على مستوى العالم أصبحت في وضع بالغ الضعف في مواجهة تغير المناخ وأزمة التنوع البيولوجي اللذين أصبحا الآن جزءًا لا يتجزأ من تنميتها الاقتصادية ومن العولمة.

ومع ذلك، فقد طورت بعض البلدان الأخرى، مثل روسيا، فهمًا استراتيجيًّا للقضايا المتعلقة بإشارات الأنثروبوسين، خاصة في ما يتعلق بتغيّر المناخ. وبالتالي، وضعت روسيا استراتيجيا قوية للتنمية الاقتصادية والعسكرية وبدأت بتنفيذها. ترتبط هذه الاستراتيجيا الكبرى بارتفاع حرارة منطقة القطب الشمالي، وتهدف إلى جعل روسيا قوة تجارية وطاقية وسيادية في القرن الحادي والعشرين،

من خلال استغلال مساحتها ومواردها الطبيعية على النطاق القاري الخاص بهذه البلاد العملاقة.

هكذا، جذبت روسيا اهتمام الصين واستثماراتها الضخمة؛ وقد حوّلت هذه الأخيرة حاجتها إلى موارد ومنتجات إلى وسيلة للتأثير على مستوى العالم، من خلال إطلاق استراتيجيا كبرى تُعرَف بـ"طريق الحرير الجديد". من هنا، أنشأت الصين شبكة ضخمة من البنى التحتية للنقل البري والبحري، أرفقتها بسيل من العقود التجارية في آسيا وأوروبا وأفريقيا والشرق الأوسط. في الواقع، أنشأت بكين "قناة" على نطاق الكوكب تهدف إلى استجرار كميات هائلة من الموارد الضرورية لتنمية "إمبراطورية الوسط" وازدهارها في عصر العولمة وأزمة التنوع البيئي وأزمة المناخ.

ومع ذلك، بدأت هذه الأزمة الكوكبية المتنامية تهدّد بعمليات تدمير ضخمة تطال عددًا متزايدًا من البلدان، نتيجة التأثير المزدوج للظروف المناخية القاسية وتسارُع ارتفاع مستوى البحار. وهو تهديد يصل إلى السواحل المكتظة بالسكان في جنوب آسيا، كما إلى التنمية الاقتصادية في البلدان والمناطق المتقدمة والمعرَّضة للخطر بسبب المحيط في عصر الأنثروبوسين.

يتخذ العنف المبالَغ فيه لمختلف النشاطات التي يمارسها الإنسان على الطبيعة طابعًا جذريًّا بحيث لا يعرِّض للخطر البنى المجتمعية فحسب، وإنما حياة الناس وقدرة الدول ذاتها على البقاء.

إن تأثيرات هذا الإضعاف للدول ملموسة تمامًا، كما يظهر من دراسة العلاقات بين التغيّر المناخي والحروب والانهيار في العراق وسورية ومصر. ويمكن أن تتكرر مثل هذه الديناميات، وقد تتكرر في العديد من مناطق العالم.

إذا كان هذا الكتاب يصف عالمًا من التهديدات التي تضع الظروف المعيشية للمجتمعات البشرية على المحك، من خلال استرعاء انتباه القارئ إلى نقاط ساخنة متنوعة تبرز حاليًّا في الجغرافيا السياسية الكوكبية الجديدة، فمردّ ذلك إلى أننا مقتنعون بأن هناك حاجة إلى إدراك حجم هذا التهديد. ومن خلال هذا الإدراك الاستراتيجي، سيكون من الممكن التصدي له لصوغ مستقبل يمكننا جميعًا مواصلة العيش فيه.

الفصل الأول

الأزمة الكوكبية أزمةٌ جيوسياسية

الثورة الصناعية والحرب والتغيّر على الكوكب

انتشرت الثورة الصناعية ابتداءً من القرن الثامن عشر من بريطانيا إلى أوروبا القارية، ثم إلى الولايات المتحدة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر[1]. حينذاك، أصبح الفحم وقودًا لصنف من الآلات لم يتوقف عددها عن الازدياد منذ 250 عامًا. إنها نقطة تحول تاريخي، لأن هذا الجمع لعمل الآلات وللطاقة الحرارية التي ينتجها احتراق الوقود الأحفوري، دفع المجتمعات نحو زيادة الإنتاج والاستهلاك باستمرار. إنها أيضًا نقطة تحول جيولوجي، كما أكدت مجموعة عمل تابعة لـ"الاتحاد الدولي للعلوم الجيولوجية" (UISG)، وقد اقترحت تسمية العصر الجيولوجي الجديد بـ"الأنثروبوسين" أو "عصر تأثير الإنسان" للإشارة إلى أن كوكبنا خرج من العصر الهولوسيني (Holocène) الذي بدأ في نهاية العصر الجليدي الأخير قبل 12,500 عامًا.

أدت الثورة الصناعية إلى ثورة عسكرية، من خلال ارتباط القدرات التصنيعية والبحث العلمي خاصة في مجال الكيمياء بالسباق إلى التسلح، وقد بدأ ذلك في نهاية القرن الثامن عشر. وأفضت الثورة الأميركية وحرب الاستقلال في أميركا الشمالية إلى ظهور أول مصانع للبنادق الخفيفة، التي تطورت إلى صناعة الأسلحة على مر القرن التالي. وفي أوروبا، بدءًا من عام 1790، مع بداية المواجهة بين

(1) Eric Hobsbawm, *Industry and Empire* (Penguin Books, 1968), p. 36.

فرنسا الثورية ومجمل قوى أوروبا الملَكية، اضطلع العلماء الفرنسيون بدور أساسي في تطوير أساليب إنتاج مكثَّفة للبارود المستخدَم في حشوات القذائف والبنادق والمدافع، والمتفجرات كذلك. هذه الاختراعات مكّنت جيوش فرنسا الجمهورية من الانتصار في حروبها على جيوش إمبراطورية النمسا-هنغاريا وبريطانيا وإسبانيا، ومن إخماد الثورات الداخلية مثل ثورة فونديه (Vendée).

تَوثَّق الترابط بين الثورة الصناعية واستخراج الفحم والحروب وتَعمَّم سريعًا في الغرب، نظرًا إلى احتدام الصراع القارّي الناتج من حروب نابليون التي تلت الحروب التي أججتها الثورة الفرنسية، واستمرت حتى عام 1815. وبدأ بناء سفن مجهَّزة بمحركات بخارية ابتداءً من مطلع القرن التاسع عشر. أما أول سفينة حربية، تلك المعروفة باسم "ديمولوغوس" (Demologos)، فقد بناها روبرت فولتون (Robert Fulton) في الولايات المتحدة خلال حرب 1812-1815 بين الولايات المتحدة وبريطانيا. وأصبح أسطول البحرية البريطانية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يعمل على البخار. وقد استفادت قوات الشمال خلال حرب الاستقلال الأميركية (1861-1865) من دعم الصناعة ومن الإمكانيات الضخمة المتوافرة لإنتاج الأسلحة والذخائر والمعدات المرتبطة بها. ترافقت هذه التعبئة في قطاع التصنيع مع تعبئة في قطاع الفحم، ما وفّر دعمًا قويًّا للرئيس لينكولن ومشروعه لإلغاء العبودية في ولايات الجنوب. بالنسبة إلى قطاع الفحم، كان إلغاء العبودية يمثِّل، من بين أهداف أخرى، إمكانية تعميم نظام طاقة جديد في جميع أنحاء الولايات المتحدة، مع ما يستتبع ذلك من فرص اقتصادية ومالية[2]. في الوقت نفسه، بدءًا من عام 1851، بدأ السباق على النفط كطاقة منافسة للفحم، وامتد من مدينة تيتوسفيل (Titusville) في بنسلفانيا إلى أوروبا وروسيا وبحر قزوين، حيث أصبحت باكو في بداية القرن العشرين عاصمة العالم للنفط، وما لبث هذا التسابق أن وصل سريعًا إلى الشرق الأوسط[3]. علاوةً على ذلك، سمحت التنمية الصناعية في ولايات الشمال بتزويد قوات الاتحاد بكَمٍّ كبيرٍ من الأسلحة والمعدات، ما مكّنها من حيازة قوة نارية وقدرة على الانتشار

(2) Timothy Mitchell, *Carbon Democracy* (La découverte, 2013).

(3) Andrew Nikiforuk, *The Energy of Slaves, Oil and the New Servitude* (Greystone, 2012), p. 31.

فلم يكن بإمكان ولايات الجنوب، ذات الطابع الزراعي والنظام القائم على الرق، مجاراتها في أي حال من الأحوال[4].

بمعنى آخر، حوّلت الثورةُ الصناعية الحرارية[5] الجغرافيا السياسيةَ العالمية في غضون عقود قليلة؛ إلا أن هذه العملية العالمية أطلقت دينامية أخرى، تمثلت في تحوُّل الجيوفيزياء الكوكبية، الذي نجم عن التغيّر في العلاقة مع الموارد الناشئة عن عملية التصنيع في أوروبا والولايات المتحدة وسائر أنحاء العالم على مدى القرن العشرين. في الواقع، إن البروز السريع والمتنامي على نحو دائم للعالم الصناعي الحراري يتطلب الوصول إلى موارد من الفحم والنفط والغاز، تتناسب مع حجم هذا الاحتياج المتنامي. علاوة على ذلك، أدى تحوّل العالم بواسطة الصناعة إلى زيادة احتياجات الإنسانية من الطاقة. وفي هذا السياق نفسه، تضاعف البحث عن الموارد الضرورية لهذا التطوير، كما تضاعفت النزاعات الناتجة منه تضاعفًا متزايدًا.

التهجين العسكري الكبير

لو شئنا أن نستلهم المقولة الأساسية التي أطلقها برونو لاتور، فإننا نصف هنا بـ"التهجين العسكري" (hybridation militaire) هذه العملية التي تستند إلى التشابك بين الصناعة والحرب وتحويل الجيولوجيا والتنوع البيولوجي إلى مورد. يبرِز برونو لاتور في كتابه الذي يحمل عنوان **لم نكن حداثيين قط**[6]، كيف يُعرَّف العالم الإنساني المعاصر بإنشاء بيئة اصطناعية تتداخل في البيئات الطبيعية. هذا التداخل يؤسِّس اتصالات غريبة تُظهِر التهجين، بدلًا من الانقسام، بين العالم الطبيعي والبيئة الاصطناعية، وذلك من خلال مزج الأشكال الاصطناعية للتلوث والنُّظم الإيكولوجية (écosystèmes) والمناظر الطبيعية. هذه العلاقة الجديدة مع الموارد والمخلَّفات، التي تنشأ على نطاق المجتمعات الصناعية واحتياجاتها واستهلاكها للموارد، تؤدي إلى علاقة جديدة مع نظام الأرض أيضًا. فكما أوضح

(4) John Frederick Charles Fuller, *La conduite de la guerre* (Payot, 2017), p. 147.

(5) Alain Gras, *Le choix du feu, aux origines de la crise climatique* (Fayard, 2007).

(6) Bruno Latour, *Nous n'avons jamais été modernes* (La découverte, 2006), p. 7.

جون روبرت مكنيل[7]، فبدءًا من القرن التاسع عشر، تلاقت عملية انتشار الثورة الصناعية مع عمليات التمدين والنمو السكاني لتشكِّل مجتمعة محركًا لتحول الجيوفيزياء والإيكولوجيا الكوكبية. تشابكت هذه الديناميات مع تلك المتعلقة بالجغرافيا السياسية وموازين القوى العسكرية لتؤدي إلى ظهور العالم المعاصر.

هكذا، تأتي "حروب الأفيون" التي اندلعت في فترتي أعوام 1839–1842 و1856–1862 لتشكِّل البرهان الساطع على الفارق الهائل في التفوق غير المتماثل للقوى الأوروبية بفضل التصنيع الذي أفادت منه جيوشها. فالسفن البخارية الأوروبية والأميركية، والمدافع، والمعدّات، وسرعة السفن، تقلب تمامًا ميزان القوى في آسيا والصين. مُنيت الجيوش الصينية بهزيمة كارثية أمام القوات البحرية والفرق العسكرية الغربية التي كانت تمتلك قدرة لا تُضاهى في قوة النيران. وقد تسببت الجيوش الأوروبية بصدمة هائلة للسكان والنخب الصينية الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة القوة العسكرية والصناعية الأوروبية والأميركية، التي تمكّنت من فتح الصين بالقوة أمام توسّع الأسواق الاستعمارية الأوروبية، تمامًا كما كان قد حدث في الهند. هذه الصدمة ستشكِّل حافزًا للتباحث والنقاش المعمَّق والمكثَّف في الصين، وكذلك في جميع أنحاء آسيا[8]. وستكون هذه المناقشات أحد الأسباب الرئيسة لظهور الحركات الثورية القومية والشيوعية في الصين في بداية القرن العشرين[9] وللأهمية المعطاة لضرورة قيام ثورة صناعية، وبالتالي عسكرية. كما أنها شكّلت الخزين الذي نهل منه الفكر السياسي والاستراتيجي لكبار الزعماء السياسيين والعسكريين الآسيويين في ذلك القرن، ومن بين هؤلاء على سبيل المثال هو تشي منه (Ho Chi Minh)، و[فو نغوين] جياب (Giap)، وماو (Mao)، ودينغ شياو بينغ (Deng Xiaoping).

في السياق نفسه، فإن أسطول السفن البخارية بقيادة الكومودور ماثيو بيري (Matthew Perry)، الذي انطلق من نورفولك (Norfolk) في عام 1852، سوف يدخل

(7) John Robert McNeill, *Something New Under the Sun: An Environmental History of the Twentieth Century* (London: Allen Lane, 2000), p. 16.

(8) Pankaj Mishra, *From the Ruins of Empire: The Revolt Against the West and the Remaking of China* (London: Allen Lane, 2012).

(9) Lucien Bianco, *Les origines de la révolution chinoise* (Gallimard, [s. d.]), p. 64.

تاريخ اليابان بعدما ألزم الحكومة اليابانية، من خلال استعراض للقوة التكنولوجية وتهديد المدافع، بإقامة علاقات دبلوماسية مع الولايات المتحدة والقوى الأوروبية. ومن أجل التغلب على هذا الشعور بالدونية الاستراتيجية، أطلقت اليابان في العقد التالي ثورتها الصناعية الخاصة بها، بهدف بلوغ مستوى القوة الموازي للقوى الغربية. تُعرف هذه المرحلة باسم عصر ميجي (Meiji)[10] وتتزامن فعليًّا مع إطلاق نموذج التنمية المعتمِد على استخدام الوقود الأحفوري وإضفاء طابع الاحتراف على الجيش الياباني. وقد تمرّس الجيش بسرعة على استخدام الأسلحة الحديثة واستيعاب التطورات التكتيكية والعملياتية والاستراتيجية التي ترتبط بها. علاوةً على ذلك، أصبحت طلبات الشراء العسكرية أحد محرّكات الصناعة، إضافة إلى السعي المستمر للحصول على الوقود الأحفوري الضروري لهذا التحديث، سواء في داخل الوطن أو في خارجه.

الواقع هو أن منذ بداية عصر الهولوسين حتى منعطف القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، اقتصرت الحاجة إلى الطاقة لدى مجموعة من البشر كانت أعدادهم تتزايد ببطء شديد، على الطهي، وتدفئة المنازل في الأوقات الباردة، واستخدام الإنارة أثناء الليل، وتشغيل الأفران. بيد أن ظهور الصناعة بدَّل تبديلًا كاملًا مستوى الاحتياجات إلى الطاقة، حيث وفّر إنتاج الحرارة تشغيل الأجهزة الميكانيكية، التي انتشرت بأعداد وكميات وفيرة وبوظائف متنوعة على نطاق مختلف البلدان مع ظهور الصناعة[11]. هذه الدينامية نراها على سبيل المثال في صناعة النسيج البريطانية، حيث إن مصانع الغزل راحت تُنتج الأقمشة لجميع أنحاء أوروبا والبلدان التابعة للإمبراطورية البريطانية، بفضل القطن الذي كان يُحصد في الهند. علاوةً على ذلك، رُبط نمو السكان ونمو المدن بسرعة باستخدامات النفط والفحم والغاز، من خلال إضاءة المدن، وإنتاج الكهرباء الحضرية، وبناء المباني، واحتياجات السكان المتزايدة ووسائل النقل الميكانيكية الجديدة التي بدأت تتكاثر.

---

(10) "عصر ميجي" هو الفترة الأولى من تاريخ اليابان المعاصر (1868–1912) وقد أُطلق عليها اسم ميجي الذي يعني "الحكومة المستنيرة". كان هذا الاسم أيضًا اللقب الرسمي للإمبراطور موتسوهيتو الذي كان قد اعتلى العرش حديثًا والمعروف بميجي تينو. (المترجم)

(11) John Robert McNeill, *The Great Acceleration* (The Belknap Press of Harvard University Press, 2014), p. 103.

وقد أصبحت الجغرافيا السياسية والاستراتيجية، بالنسبة إلى البلدان التي انخرطت في عملية التصنيع في القرن التاسع عشر، وسيلةً لتلبية الاحتياجات من الموارد الطبيعية، وضمان استمرار تأمين الإمدادات لإنتاج الطاقة الميكانيكية اللازمة للصناعة. في السياق نفسه، جرى تحوّلٌ في القوات المسلحة الحديثة أيضًا بفعل القوة الصناعية، فاحتاجت إلى ضمان أمن الموارد الأحفورية التي تعتمد عليها. هكذا، في نهاية القرن التاسع عشر، تحت إشراف صاحب الهمة "اللورد الأول للأميرالية" ونستون تشرتشل، وبمبادرة منه، حوّلت البحرية البريطانية محركات سفنها من الفحم إلى المحروقات النفطية، ما أكسبها سرعة وقوة إضافيتين، لكن الأمر تَطلّب في المقابل تأمين مصادر هذه الوقود وخط سيرها.

خضعت المنافسة بين الأمم، في غضون سنوات قليلة، وإلى حد كبير، لعملية الوصول إلى موارد الطاقة الأحفورية والسيطرة عليها، بعد أن أصبحت المجتمعات الحديثة الميكانيكية الحرارية تعتمد عليها. من هنا، انخرطت القوتان الإمبرياليتان العظميان، فرنسا وبريطانيا، في منافسة شرسة من أجل الوصول إلى حقول النفط في المغرب والشرق الأوسط، مسرِّعتين بذلك سقوط الإمبراطورية العثمانية المنهكة، التي فشلت في التكيّف مع القوة الاقتصادية والعسكرية التي أمّنتها الثورة الصناعية للقوى الأوروبية الكبرى[12]. أدت هذه المنافسة الى بروز جيل كامل من المستعربين الشبان الذين جنَّدهم الجيشُ البريطاني وأجهزة الاستخبارات البريطانية، ولعل أبرز من يمثِّل هؤلاء هو توماس إدوارد لورنس، المعروف بـ"لورنس العرب". وفي الولايات المتحدة، أصبحت شركات النفط الكبرى مثل الشركة العملاقة "ستاندرد أويل" (Standard Oil) التي أسسها الملياردير جون روكفلر (John Rockefeller) جزءًا لا يتجزأ من السياسة الداخلية والخارجية للاتحاد الأميركي (وبعد قانون منع الاحتكار، قُسِّمت شركة ستاندرد أويل إلى شركات منفصلة، منها شركتا موبيل (Mobil) وإكسون (Exxon)). وفي الوقت نفسه، دخلت مسألة النفط في مجال الأمن القومي. بدأت روسيا باستثمار بحر قزوين، كما بدأت باستكشاف سيبيريا لأغراض استخراج النفط والغاز.

(12) Gras.